الفصل الرابع
الطاعـــــون

إن العالم الذي نعرفه اليوم (١٩٩٨) يختلف كثيرا عما كان عليه منذ مائـــة عـــام. فلم يكن فجر عصر الطيران قد انبلج بعد. وكانت المحاولة الأولى لطـــيران الأخَـــوَان رايت (Wright brothers) لا تزال بعد حلما لم يتحقق إلا بعد عدة سنوات. ولم تكن السفن العملاقة كالجبال قد بُنيت بعد، ولا كانت الغواصات قد اختُرعَت بعد. ومع ذلك فقد كانت هناك حركة ونشاط في الأجواء تنبئ بأن فجر يوم مبكر يوشك على الانبلاج، فينبثق في إثره يوم جديد يحمل انقلابا عظيما من الاختراعات العلمية.

كذلـــك كانـــت الأجواء في عالم الأديان تنبض بحيوية في توقع ذي طبيعة مختلفة. فقد كان هناك حديث يجري بين أتباع كل دين عن قرب ظهور مصلح عظيم من الله تعالى يأتي للعالم كله. أما من هو ذلك المصلح الرباني وأين يظهر، فقد كان هو الموضوع الذي يثير الجدال الساخن بين الناس. وكانت هناك الكثير من الآراء والآراء المقابلة، ولكن لم يكن من مكان تحتدم فيه المجادلات كما كانت تحتدم في شبه القارة الهندية.

كان كل من المسلمين والمسيحيين ينتظرون وصول المسيح من بينهم. ولم يكـــن الهـــندوس أقل حماسا منهم انتظارا لظهور كرشنا من بينهم. وكذلـــك لم يكـــن البوذيون في المؤخرة بالنسبة لجميع هؤلاء، فهم أيضا كانوا ينتظرون بعثة "بوذا" الثانية.

وفي هـــذا الجو المشحون بالتوقع والانتظار والصراع بين جميع أتباع الأديان.. سمع العالم صوتا عاليا مدويا، لإنسان من أصل كريم كان اسمه مرزا غلام أحمد عليه السلام من قاديان. وقد أثار دويا كبيرا بدفاعه البارع عن الإسلام وإظهار عظمته وتفوّقه على الأديان كلها. وراح يقدم التحدّيات

إلى الجميع باسم الإسلام.. تحدّيات تؤيدها الدلائل القوية التي تقوم على البراهين العقلية والأدلة المستقاة من الصحف المقدسة، الأمر الذي اضطر زعماء الأديان الأخرى إلى الاهتمام به اهتماما بالغا، وأن يحسبوا له ألف حساب. وكان الإحساس العام والشعور الغامر في كل مكان هو أنه "قد قام مجاهد جديد للدفاع عن الإسلام".

كان ينتاب مسلمي الهند غبطة وسرور عظيمان، كما كان يراودهم أيضا أمل كبير. فإلى أن دخل هذا البطل الجديد ساحة الدفاع عن الإسلام، كان الإسلام أقل الأديان المتصارعة قدرة على الدفاع عن نفسه، وذلك لغياب من يقومون بهذا الواجب أو لضعفهم. ولقد علا نجمه بسرعة فلكية في سماء الشهرة بين مسلمي الهند حين نشر مؤلفه العظيم 'البراهين الأحمدية'. وتسابق أشهر العلماء المسلمين في زمانه إلى تقريظ الأجزاء الأولى التي تم نشرها من الكتاب، ودبجوا المقالات، وكالوا الثناء الشديد على براعة المؤلف في دفاعه عن الإسلام. ونشر علماء عصره الكثير من مقالات المديح والامتنان في الصحف الإسلامية الكبرى. ولكن.. لم تكن هذه الحال لتستمر طويلا.

لقد تغير الوضع تماما عندما أعلن يوما أن الله تعالى قد أوحى إليه أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قد مات، وأنه بعد أن نجاه الله تعالى من الموت على الصليب عاش لسنوات طوال، ثم مات كما مات من قبله الأنبياء الآخرون. وأن الله قد جعله هو.. مرزا غلام أحمد عليه السلام.. مسيح آخر الزمان، إذ بعثه الله تعالى وسماه باسم المسيح وجعله مشابها له في روحه وقوته وأسلوبه، وذلك تحقيقا للنبوءات عن المجيء الثاني لعيسى عليه السلام. وسوف نناقش هذا الموضوع باستفاضة في الباب السابع من هذا الكتاب، أما الآن فنكتفي بالقول إن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل أن يقوم بنشر إعلانه هذا. وأول ما كلفه هذا الإعلان هو فقدانه للتأييد والإعجاب الشديد الذي كان يحظى به، والذي تحول بين يوم وليلة إلى

شهرة قبيحة وصيت رديء. وظل اسمه معروفا لدى المسلمين من الشرق إلى الغـــرب عبر ربوع شبه القارة الهندية الواسعة، ولكن بغير أن يكون مقـــرونا بالشـــرف والكرامة، ولا مصحوبا بالآمال المعقودة أو الأماني الطموحة. وهكذا تحَوّل البطل المغوار الذي كان أشد المدافعين ذودا عن الإســـلام.. ليصير هدفا لنبال المسلمين أنفسهم.. الذين كان يدفع عنهم وعـــن الدين سهامَ الأعداء التي انهالت عليه من كل جانب. وتحوّل جميع الأصدقاء إلى أعداء، وكل أولئك الذين كانوا يتمنون لـــه الفوز والنجاح راحـــوا يتمنون لـــه الموت والهلاك، بدلا من أن يقبلوا بموت عيسى بن مـــريم عليه السلام أو يقبلوا تحقق الوعد بعودته في مسيح يولد من بين المسلمين أنفســـهم. ولم تـــر شبه القارة الهندية أحدا ناله الثلب والشتم والتحقير، ووُجّـــه إلـــيه الـــذم والسب والتكفير، وصُب عليه جام الغضب والغيظ والـــتعريض، كما حدث معه بهذه الشراسة البالغة والقسوة العنيفة. وفي تلك اللحظات من الخيانة التامة والتخلي الكامل من قِبَل العالم الإسلامي، والعداء السافر والخصومة العنيدة من قِبَل أتباع الأديانَ الأخرى، تلقى من الله تعالى وعدا بأنه سبحانه لن يتخلى عنه ولن يتركه وحيدا. وأوْحَى إليه تـــبارك وتعـــالى بالكـــثير من النبوءات التي تحمل الإنذار بالعقاب الإلهي لأولـــئك الذيـــن كـــانوا يقودون الحملات المريرة من الكراهية الشديدة والمعارضة المجنونة التي كانت تُشن ضده. كذلك فقد أبلغه الله تعالى بعديد مـــن النـــبوءات تتعلق بعقوبات سماوية على نطاق أوسع ومجالات أكبر وأشمل، حتى يتسنى للناس عموما أن يتعلموا الدروس النافعة منها. ولكنهم لم يلقوا إليها بالا.. فقد كذبه الناس، ولكن لم يسَع أحدا تكذيب نبوءات العقاب السماوي التي أوحاها إليه.

كانت إحدى تلك النبوءات تتعلق بانتشار وباء الطاعون الذي كان مـــن المقـــدّر لـــه أن يعيث فسادا وينشر الهلاك في البنجاب على وجه الخصـــوص، وهـــي المحافظـــة الهـــندية التي كان ينتمي إليها. وأما أشد

الإنذارات المؤكدة التي وجهها للعالم بأسره، فقد أوحاها الله تعالى إليه في الكلمات التالية المترجمة إلى العربية:

"لقد جاء نذير إلى الدنيا، ولكن الدنيا لم تقبله؛ غير أن الله سيقبله ويُظهر صدقه بهجمات قوية".[1]

كان الطاعون كما ذكرنا هو مجرد واحدة من الضربات العقابية الكثيرة التي تنبأ بها، ولكنها كانت آية معجزة بشكل خاص، حتى إننا اخترناها بالذات لتكون حالة خاصة بنفسها. فلم تكن آية تدل على صدق المسيح الموعود عليه السلام فحسب، وإنما كانت آية على صدق القرآن المجيد، وصدق الرسول ﷺ الذي أتى به من عند الله العزيز الحكيم. كذلك فقد أثبتت بوضوح وجلاء أن الوحي الإلهي هو أكثر الوسائل التي يُعَوّل عليها في نقل المعرفة من نطاق المجهول إلى عالم المعلوم. إن العقاب الإلهي الذي أتى به الطاعون، كما أنبأ الله تعالى به المسيح الموعود عليه السلام، كان في واقع الأمر نبوءة ذكرها القرآن المجيد، وتكرر تأكيد الله تعالى له على وقوعها في زمنه، حيث إنه كان الزمن المقدّر لها أن تتحقق فيه. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (٢٧ النمل:٨٣)

إن كلمة (دابة) كما يستعملها القرآن المجيد قد تم التعريف بها فيما يتعلق بآية أخرى سبق الحديث عنها، فهي تنطبق على جميع الأجسام الحيّة من أصغرها حجما إلى أكبرها ضخامة، التي تتحرك على وجه الأرض بحركة انتقالية.[2]

ومن الضرورة بمكان فهم أهمية هذه النبوءة التي تحمل أيضا رسالة هامة للناس في زمننا هذا. وقد ذكر الكثير من العلماء المسلمين والمفسرين أن هذه الآية الكريمة تتعلق بالزمن الذي يظهر فيه الإمام المهدي والمسيح

الموعود. ورغم أنه لم يكن في مقدورهم سبر الغور الكامل لأهمية الرسالة التي تحملها هذه الآية، إلا أنهم اقتربوا جدا من ذلك. فقد علق على هذه الآيـــة العلامـــة إسماعيل حقي البروسوي (المتوفى ١١٣٧ من الهجرة) في تفسيره "روح البيان"، فقال إن المهدي سوف يأتي ثم يخرج الدجال يتبعه المسيح. وفي أثناء ذلك ستخرج الدابة ثم تطلع الشمس من المغرب.

وكان العالم الشيعي الملا فتح الله الكاشاني (المتوفى في ٩٨٨ هجريا)، قد ذكر في تفسيره "منهاج الصادقين" العبارات التالية:

"في رأي البعض من أصدقائنا أن هذه الآية (التي تتحدث عن خروج الدابة) تشير إلى مجيء السلطة الربانية التي هي مهدي الأمة الإسلامية".

كـــان هذا هو أقصى ما وصل إليه هؤلاء المفسرون حسب دراستهم للحديـــث الشـــريف فيما يتعلق بالآية الكريمة السابق ذكرها. ولم يُقدم هـــؤلاء أي شرح أو بيان عن طبيعة "الدابة"، وإنما تُرك هذا الأمر لحضرة مـــرزا غلام أحمد عليه السلام، بصفته المجدد المأمور من الله تعالى لآخر الزمان، فكـــان من نصيبه أن يستفيض في شرح المعنى الحقيقي الذي تتضمنه هذه الآية، في ضوء الوحي الإلهي والرؤى التي تلقاها من الله تعالى.

في شهر فبراير (شباط) من عام ١٨٩٨ تلقى سيدنا أحمد عليه السلام وحيا مـــن الله تعالى ينبئه فيه بقرب ظهور وباء الطاعون. وعلى الفور نشر هذا النذير في الصحف، وفي الكثير من المنشورات، لكي يحذر الناس عامة من العقاب الآتي. وقد بيَّن أن هذا الوباء الذي أخبره الله تعالى عنه، هو نفس البليّة التي تتضمنها الآية المتعلقة بخروج الدابة.

كذلـــك فقـــد شرح أن كلمة (تُكَلِّمْ) المذكورة في الآية القرآنية لها معنـــيان أساسيان. المعنى الأول هو (تُجَرِّحْ)، والمعنى الثاني هو (تُحَدِّثْ). والســـياق الذي جاءت فيه الآية القرآنية يدل بوضوح على أن حيوانا ما ســـوف يُجَـــرِّح الناس لأنهم كانوا يرفضون الإيمان بآيات الله عز وعلا. والمعـــنى الآخـــر يقتضي من الدابة أن تحدث الناس، وهذا تقوم به الدابة

بطـــريقة ضمنية، بمعنى أن التجريح الذي تسبّبه الدابة هو نتيجة لرفضهم قـــبول آيات الله تعالى. وعلى ذلك فالدابة تحدّث الناس حين تُجرّحهم، وبهذا تُفرّق بين الصالحين والطالحين منهم.

وتـــلا هذا الإنذار المبدئي الكثير من التحذيرات والإنذارات التي تُبين طبيعة الوباء المتوقع، والكيفية التي سيتفشى بها. وقد أخبر الله تعالى عبده المسيح الموعود عليه السلام بكلمات لا يشوبها أي غموض أن هذا الوباء سوف يصـــيب الكثير من المناطق في البنجاب بخراب شديد، وأن قرية بعد قرية ســـوف تصـــير قفرا يخلو من الحياة، وسوف يطرق الطاعون كل باب، ويصيب المدن والحضر من أقصى البلاد إلى أقصاها، وسوف يترك وراءه شـــعاب مـــن الرعب والفزع حيثما حل أو رحل. وحتى قرية قاديان.. حيـــث كان يسكن هو نفسه.. لن تُستثنى من هذا العذاب، وإنما سوف يعمـــل فـــيها الطاعون عمله لكي يظهر صدقه ويتجلى الحق. وسيصيب الطاعون جميع الديار التي تحيط بداره، ولكن لن يسمح الله تعالى للطاعون أن يخطو خطوة واحدة إلى داخل الدار، فكان الوحي الذي تلقاه يقول:

إِنِي أُحافِظ كُلَّ مَنْ فِي الدَّارِ[٣]

وقـــد شرح بوضوح لجميع هؤلاء الذين أرادوا أن يتخذوا من داره ملاذا من الطاعون.. أن هذا الوعد ليس مقصورا فقط على أولئك الذين يقـــيمون بأشخاصهم في داره المبنية من حجر، وإنما يشمل أيضا أولئك الذيـــن يقيمون في داره الروحية.. أي في الجماعة الإسلامية الأحمدية التي تؤمن به وتتبعه. وبذلك فقد كان نذيرا لكل من حاد عن الطريق وأبى أن يؤمن به، كما أنه كان بشيرا بالحفاظة الإعجازية لجميع المؤمنين.

وعـــندما ذكر أن الأحمديين سوف يتمتعون بالحفاظة الربانية المعجزة مـــن هـــذا البلاء المبين، فقد بيَّن أيضا أنه في بعض الحالات الاستثنائية.. يمكـــن أن يعـــاني من هذا الوباء بعض الأحمديين الذين يؤمنون بأفواههم

فقـــط. ولكـــن الأحمديـــين ككل.. وعلى وجه العموم.. سوف ينالون الحفاظة بنسبة عالية واضحة وبارزة بشكل لا يترك أي مجال للشك لدى من يشاهد هذه الظاهرة بأن هذه الحفاظة ليست نتيجة للصدفة المحضة.

إن قصـــة الطاعون في البنجاب قصة عجيبة حقا. وهي تشهد على صـــدق المســـيح الموعود عليه السلام نصا وروحا. فكيف يسوغ لإنسان ادعاء حفاظـــته.. ولـــو من الزكام العادي.. كدليل على صدقه؟ وإعلانه بأن الطـــاعون سوف يتعاطف بشكل واضح مع أتباعه لهو أمر عظيم لا يجرؤ الإنســـان العادي على الادعاء به ما لم يكن الله تعالى بنفسه قد أنبأه به. لقـــد كـــان حقا نبأ عظيم ذلك الذي أعلنه.. بأن كل من يخضع بصدق لدعوتـــه، وإيمانه بأنه إمام الزمان المرسل من لدن الله تعالى، فإنه سبحانه سوف يقيه شر ذلك الطاعون الفتاك.

وأخـــيرا حيـــنما حانت ساعة العقاب.. نزل العذاب بساحة أعدائه الألـــداء. وكان الكثيرون منهم قد أقسموا أمام الناس أن مرزا غلام أحمد نفســـه هـــو الـــذي سوف يسقط ضحية لهذا الوباء ويهلك بالطاعون. ولكـــنهم هـــم وأفراد أسرهم أصيبوا بالطاعون، فكان الفرد من الأسرة يمـــوت ويتبعه الآخر، حتى إنه لم يبق في النهاية أحد للحداد والبكاء على موتهم. وحسب الوعد الذي ذكرته النبوءة، فقد حاد الطاعون عن أتباع مـــرزا غلام أحمد عليه السلام إلى حد كبير، وبشكل واضح لا يمكن تبريره بأنه نتـــيجة الصدفة، وليس هناك من منطق أرضي أو دنيوي يمكن أن يشرح هذه المحاباة المتميزة، التي كان الطاعون يعامل بها الأحمديين، في المئات من القرى التي يعيش فيها الناس، ويختلطون بعضهم ببعض. وقد تكررت هذه المعجـــزة في كل مكان بوضوح يخطف الأبصار، بل يجعل الأعمى يرى الـــنور. ولقد رأى العميان النور، وتوافدوا إلى المرفأ الآمن.. إلى الجماعة الإســـلامية الأحمديـــة.. بأعداد كبيرة وضخمة بشكل لم يحدث من قبل أبدا، وبهذا فقد نجوا من الموت. ولكن وا أسفاه على أولئك الذين كانوا

يتمـــتعون بـــنعمة البصر، ولكن عميت عيونهم بسبب تألق الحق بأنواره المتلألئة. كانت هناك بعض القرى لم يبق بها أحد ليحمل نعوش الموتى إلى المدافن القريبة، ما عدا أتباع مرزا غلام أحمد عليه السلام، الذين كانوا يحملون نعـــوش الموتى من المعارضين لهم على أكتافهم إلى أرض المدفن، بغير أن ينتابهم ذرة من خوف العدوى والإصابة بالطاعون.

وإذا عدنـــا إلى قاديان لنرى ماذا يحدث فيها، بعد هذه النظرة العامة للأمور في البنجاب، فإنّا نرى أن كل شيء كان يسير وفق النبوءة، إلا من حالة أو حالتين كانتا تبدوان كأمر شاذ متنافر النغم. فقد حدث أن أحد أتباع المسيح الموعود البارزين، وكان اسمه المولوي محمد علي، وقع فريسة لحمى شديدة تصاحبها جميع الأعراض التي تشبه أعراض مرض الطاعون، حـــتى إن الغدد تحت إبطيه بدأت تتورم بشكل خطير، فسببت لـــه آلاما مـــبرحة وضيقا شديدا. وقُدمت له المساعدة الطبية التي كانت من أحسن مـــا هو متاح، ولكن بغير جدوى، إذ لم يختف الألم ولم يقل. ولم يستطع أن يفهـــم.. وهـــو من أصحاب المسيح عليه السلام.. كيف يمكن أن يؤول به الأمـــر إلى هـــذه النهاية، على عكس الوعد الذي جاء في نبوءة الوحي الإلهي. إن آلام المرض بذاتها كانت أشد من أن تُحتمل، خاصة إذا أضفنا إليها عذاب الضمير الذي ربما كان يعذبه خوفا من أن يكون معدودا عند الله تعالى خارج عباده الصالحين.

وهكذا كان يتقلب في فراشه وهو يبكي وينتحب، راجيا أن يسرع أحـــد إلى المســـيح الموعود عليه السلام ليخبره بما تردّى إليه أمره، ويرجوه أن يـــزوره.. لعـــل الله تعالى يُنْزل عليه بركة من السماء. وقد جاء المسيح الموعـــود عليه السلام عـــلى الفور، ولم يزعجه بتاتا أن يكون المريض قد وقع فريســـة للطاعون حسب التقارير الطبية، فذهب إلى جوار سريره ووضع يـــده الشـــريفة على جبهة المولوي محمد علي، وهو يُسرِّي عنه بكلمات الســـلوى السكينة، مؤكدا على أنه كما هو على يقين بأنه المسيح الحق

المـــبعوث من لدن الله تعالى، فهو أيضا على يقين بأن المولوي صاحب لن يموت بالطاعون. و لم يستغرق الأمر طويلا لكي يرى الحاضرون تحقق هذه الكـــلمات.. فبينما كان المسيح الموعود عليه السلام يتحدث مع المولوي محمد عـــلي، وهـــو لا يزال واضعا كفه على جبهته، إذ هبطت درجة حرارته بســـرعة، وعلى الفور اختفت جميع آثار الحمى أو الطاعون، فجلس على ســـريره مندهشا وهو يتحسس جسده هنا وهناك، وقد عقدت الدهشة لســـانه للســـرعة العجيبة التي غادرت بها الحمى جسده. وتعجّب جميع أولـــئك الذين جلسوا حوله وهم يتوقعون موته بين لحظة وأخرى، ولكن كـــان من المقدّر لهم أن يروا معجزة حياته. وقد عاش أعواما طويلة بعد ذلـــك، ومات في لاهور عام ١٩٥١ عن عمر مديد بلغ فيه عامه السابع والسبعين.

كـــيف أمكـــن للطاعون أن يُفرّق بين أولئك الذين آمنوا بالمسيح الموعود عليه السلام وبين غيرهم من الناس.. سيظل هذا سرا عجيبا من غوامض الأمور، ولكن ليس لهؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى الذي لا حصر لأسمائه الحسنى، ولا حدود لقدرته سبحانه على فعل ما يريد.

غـــير أنه يمكن أن ينشأ هنا سؤال هام.. منطقي ومعقول.. وهو: ما هـــي تلك الدلائل والبراهين التي يمكن تقديمها لكي تُقنع الباحث المحايد بصدق وحقيقة ما تم ذكره في هذا الفصل من أحداث؟ والمشكلة هي أن جميع الدلائل المباشرة التي يمكن تقديمها هي أدلة داخلية، فكل الشهود هم أحمديون أو من الذين دخلوا في الجماعة الإسلامية الأحمدية بعد مشاهدة هذه المعجزة. وليس هناك من دليل خارج الجماعة إلا الأدلة غير المباشرة أو الأدلـــة الضـــمنية، ومـــع ذلك فهي أدلة قوية، لأنها تأتي من الشهود المخالفين والمعارضين معارضة شديدة للجماعة. والمشكلة الرئيسة هي أنه لم يحـــدث أن قامت جهة محايدة محترمة في ذلك الوقت بتقصّي الأمر، إذ كـــان هـــناك فريقان لا ثالث لهما: الأحمديون وغير الأحمديين. وكل ما

يمكن الحصول عليه من الحقائق والأرقام المتاحة عن وباء الطاعون وتأثيره وأسلوب سلوكه.. هو ما تحتويه الأراشيف لما تم نشره في الصحف، والمجلات، والمنشورات، والملصقات، والكتب، التي كانت تصدر في ذلك الحين. غير أن دراسة وفحص مصداقية هذه المستندات يظل أمرا يخضع للتقدير.

إن أكثر العوامل الجديرة بالتسجيل هنا هو ذلك الاهتمام المدَوّي النابض بالجماعة الإسلامية الأحمدية في تلك الفترة. فقد كانت هناك صحافة قوية معارضة للأحمدية، وكانت تقوم بتغطية دقيقة، وحادة، ولاذعة، وسلبية لكل ما كان يحدث في هذه الجماعة الحديثة، وكل ما كان يُقال أو يحدث من قبل مرزا غلام أحمد عليه السلام، وكان كل ما كان يحدث له تحت الملاحظة الدقيقة، كما كان يتم تسجيله من جانب معارضيه. كان كل ما يمكن أن يُؤخذ عليه أو يُستعمل ضده يَلقَى تغطية كاملة بحماس جياش. ولم تكن تلك المعارضة القوية وقفا فقط على الصحافة الإسلامية من غير الأحمديين، بل إن الصحافة المسيحية والهندوسية لم تترك أية فرصة تفلت منها لتتذرع بكل وسيلة ممكنة للإساءة إليه أو توجيه اللوم له. ولو كانت تغطية الصحافة الأحمدية لأخبار الطاعون قد حادت عن الحقيقة قيد أنملة، أو بالغت في ذكر أي أمر من الأمور، فإن الصحافة المعادية لغير الأحمديين ما كانت لتغفل عنه أو تسقطه من اهتمامها.

طوال السنوات السبع، أو ما يقرب من ذلك، التي ظل الطاعون يعمل فيها بنشاط في البنجاب، لم يترك مرزا غلام أحمد المسيح الموعود عليه السلام اهتمام الناس يقل أو يتضاءل بأنباء الطاعون وسلوكه تجاه أفراد جماعته. وقد كان هناك العديد من أعدائه الألداء الذين كانوا قد دخلوا معه في مباهلات مصحوبة بالادعاءات والادعاءات المقابلة التي كان يتم نشرها على نطاق واسع لتحديد الفريق الذي سيموت مصابا بالطاعون..

علامـــة على نزول غضب الله عليه. وقد مات الكثير من أولئك الأعداء، وظـــل الباقون ينتظرون في ترقب وخوف. ولكن الطاعون لم يقترب منه ولم يمســـه، ولم يمس زوجه، ولم يصب أحدا من أبنائه أو بناته أيضا، بل ولم يُعثر أبدا على فأر مات بتأثير الطاعون بين جدران بيته.

وقـــد كـــان يعيد نشر هذه الحقائق، مما كان يزيد نار الغيظ والحقد اشتعالا لدى أعدائه، الأمر الذي كان يدفعهم إلى تكرار الدعاء عليه أكثر مما سبق حتى تحل عليه لعنة الطاعون، ولكن بغير جدوى. فلم يحدث لـــه شـــيء ولا لهؤلاء الذين كانوا يعيشون داخل نطاق مسكنه الآمن.. سواء كان ذلك مسكنه المادي أو مسكنه الروحي. فهل يمكن لأحد أن يُصدر ســـطرا واحدا تم نشره في أية صحيفة أو مجلة أو كتاب من الصحف أو المجلات أو الكتب التي نُشرت في ذلك الوقت، يُبين كذب أقواله أو عدم صحة ما أعلنه، أو هل يمكن لأحد أن يذكر اسم أي فرد من أفراد أسرته أو أولـــئك الذيـــن كانوا يقيمون داخل جدران بيته، ممن يكون قد وقع ضحية لمرض الطاعون؟

وينطـــبق نفـــس الأمر على المطبوعات الأحمدية التي من الواضح أنها كانت صامتة تماما عن ذكر أي من تلك المصائب والنكبات، فلم تسجل تلـــك المطبوعات أي خبر عن وقوع وفاة بين أفراد عائلة المسيح الموعود عليه السلام أو أولـــئك الذيـــن كـــانوا يعيشون حوله، مع العلم بأن الصحافة الأحمديـــة كانت تتابع وتنشر باستمرار، وبشكل دوري، جميع الأحداث التي كانت تتعلق بالمسيح الموعود عليه السلام من قريب أو بعيد.

وأمـــا فـــيما يتعلق بأفراد الجماعة خارج نطاق قاديان، فقد كانت نجاتهم من الوقوع فريسة لمرض الطاعون تزيد بشكل واسع وبنسبة كبيرة. فقد كانت نسبة غير الأحمديين الذين صرعهم الطاعون تقف عالية مرتفعة بالنسبة للحالات النادرة التي مات فيها بعض الأحمديين في نفس القرية.

ولـــو كانت هذه الأنباء التي نشرتها الصحافة الأحمدية غير صحيحة،

لكانـــت الصحافة المعادية قد كشفتها وضخمتها وأذاعتها لتستفيد منها على أوسع نطاق. ولكن هذا لم يحدث أبدا، وهو أمر يجب أن يُؤخذ في الاعتـــبار على أنه دليل خارجي غير مباشر، ولا يصح إغفاله أو التغاضي عنه.

وهناك دليل آخر يؤيد ما أعلنته الجماعة الإسلامية الأحمدية ولا يمكن دحضه، وهو يتعلق بحقيقة الانتشار الواسع ودخول أعداد كبيرة من الناس في الجماعة خلال الفترة التي انتشر فيها الطاعون. كانت الأرقام التي تنشر دومـــا في صـــحيفة الجماعـــة 'الحكَم' تبين زيادة ضخمة في معدلات الانضمام إلى الجماعة في تلك المرحلة الصعبة، ولم يحدث أبدا أن أنكرت الصحف المعادية أيا من هذه الأرقام أو صوّبتها، فقد كانت هذه الأرقام صـــحيحة وحقيقية وتعبر عن أشخاص حقيقيين يسكنون في قرى ومدن حقيقـــية. فـــلماذا سكتت الصحافة عن تكذيب هذه الأرقام لو كانت بـــالفعل أرقامـــا كاذبة أو مبالغا فيها، ولماذا صمت جميع المعارضين فلم يسجلوا اعتراضاتهم على صحة هذه الأرقام؟ حقا لقد كانت تلك الفترة هي الفترة التي يكون الصمت فيها أعلى دويا من جميع الكلمات.

إن الحقـــيقة الشـــامخة هي أن انتشار الدعوة الأحمدية هذا الانتشار الواســـع في الفـــترة من ١٨٩٨-١٩٠٦، وهي فترة وجود الطاعون في البنجاب، إنما هو أمر لا يمكن إنكاره، وحقيقة لا يمكن دحضها. وحسب الإحصـــاءات الـــتي كانت جريدة الحكَم تنشرها دوْما، كان عدد أفراد الجماعـــة الإسلامية الأحمدية في عام ١٩٠٢ قد ارتفع من بضع عشرات الألوف إلى مائة ألف. وفي عام ١٩٠٤ تضاعف تعداد أفراد الجماعة إلى مائتين ألف. وأخيرا عندما بدأ الطاعون يتراجع في عام ١٩٠٦ كان تعداد الجماعة قد زاد عن أربعمائة ألف.

وفي ضوء ما سبق ذكره.. لا بد أن نضع في الاعتبار أنه لو ثبت خطأ النـــبوءة الـــتي ذكرها المسيح الموعود عليه السلام عن الطاعون، لكانت الدعوة

الأحمدية قد سُحقَت وانمحت تماما من على وجه الأرض. ولو كان قد نجا أحد من أفرادها من بطش الطاعون بعد السنوات التي عاث فيها في أرض البـــنجاب، لـــتعرض إلى الخزي بسبب "افتضاح كذب مرزا غلام أحمد". ولكـــن هـــذا لم يحـــدث. إذ أن الطاعون كان دوْما يقلل أرقام المعادين والمعارضـــين للجماعة الإسلامية الأحمدية، بينما كان يزيد ويضخم أعداد المنضمين إليها، وانتشرت الدعوة وتقدمت بقفزات واسعة ووثبات سريعة إلى الأمام.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٠ الروم:٢٢)

وفـــيما يـــتعلق بالآية القرآنية التي يقوم عليها بناء هذه النبوءة، وهي الآيـــة الـــتي تذكر خروج الدابة.. فإننا نريد أن نلفت أنظار القارئ إلى حقـــيقة أن هذه الآية تُعتبر معجزة في ذاتها. ولا بد من مساعدة القارئ لكـــي يستطيع أن يُقَدّر حقيقة الجمال الذي تتضمنه الآية وما خفي فيها من أمور. وقد حاولنا تحقيق هذا في المقطع التالي، ولا بد من التأكيد على أهمية الأمور التالية:

في الزمن الذي نزل فيه القرآن، لم تكن أسباب انتشار الطاعون بهذه الصورة الهائلة معروفة لدى الناس، ولم يكن أحد يعلم شيئا عما إذا كانت الفـــئران تقوم بأي دور فعال في نقل العدوى. ومن المؤكد أن الفئران لم تكـــن تعض الناس فتنقل إليهم العدوى. كذلك لم يكن من المعروف أن حشرة صغيرة بدون جناحين، أي البرغوث، هي التي تحمل جراثيم ذلك المرض المميت. ولم يكن من المعروف أيضا أن لدغة هذا البرغوث هي التي كانـــت تحقـــن فيروسات المرض في دماء الضحايا. ولو كان القرآن من تألـــيف أحد من البشر في ذلك الزمن، لما كان في استطاعته أبدا أن يتنبأ بـــأن انتشـــار الطاعون يتم عن طريق لدغة حيوان يمكن أن يوصف بأنه 'دابة'.

ونحن نعلم الآن أن الحيوان الذي ينشر وباء الطاعون هو حشرة، كما نعـــلم أيضا أن هناك أعدادا ضخمة من أنواع الحشرات لها أجنحة، وأن عـــدد أنـــواع الحشرات غير المجنحة هي أعداد ضئيلة جدا بالمقارنة، مثل حشرة القمل، والحشرة المعروفة باسم العثة الفضية، وبعض الأنواع التي لا تـــتوالد مـــن أمثال النملة البيضاء. وأخيرا لقد عرفنا الآن أنه برغم كون البرغوث حشرة إلا 'أنه يُعتبر دابة' أيضا، حيث إنه غير مجنح ويدب على الأرض في حركته. وهذه الصفة الخاصة التي يتصف بها البرغوث هي التي تؤهله بحق أن يُسمى 'دابة'، وإلا فقد كان من المحتمل اعتبار الآية القرآنية غير صحيحة.

وبكـــل احـــترام.. فإننا نلفت أنظار علماء التاريخ الطبيعي والمنادين بمذهـــب الطبـــيعة إلى هذا المثال الفريد، ونتوسل إليهم أن يبحثوا الأمر بعقولهـــم ووجدانهـــم. هـــل يمكن لهم حقا التغاضي عن هذا الاستثناء وإسقاطه على أنه مجرد صدفة؟

*****

المـــــــراجع

1. *Nozūl-ul-Masih* – Rūhānī Khazā'en. (1984) Vol.18 pp.466-467
2. LANE, E.W. (1984) *Arabic-English Lexicon.* Islamic Text Society, William & Norgate. Cambridge.
3. *Tazkirah* – Collection of Revelations and Dreams of the Promised Messiah – HAZRAT MIRZA GHULAM AHMAD OF QADIAN. Published by Al-Shirkatul Islāmiyyah ltd. p.428